بياضٌ ملوَّث



رواية

خديجة أزلماض

بياضٌ ملوَّث

رواية

خديجة أزلماض

تقديم .

لم تكن القرية تظهر على الخرائط، لا تلك الحديثة ولا التي يعلوها الغبار، كأن أحدًا ما تعمّد إخفاءها، أو لعلّها اختارت أن تُنسى بنفسها. مجرّد مجموعة شقق رمادية منحنية، محاطة بهالة كثيفة من الثلج الصامت، تفصلها عن العالم مسافات لم يكن يُقاس طولها بالكيلومترات، بل بالنسيان. البياض هنا لم يكن مريحًا، لم يكن نقيًّا كما يُقال عنه في المدن؛ كان خانقًا، يشبه الشاش الذي يُلف حول الجثث حين لا يراد لها أن تنزف أكثر.

وصلت سفيتلانا إلى هذا الركن النائي من روسيا في مساء خالٍ من الشمس، بعينين لا تحملان فضولًا، وحقيبة لا تحوي سوى دفاتر مغلقة وقمصان باهتة. لا أحد يعرف من أين جاءت تحديدًا، ولا أحد سألها. في هذه القرية، الفضول يُعتبر خطرًا شخصيًا. أهل المكان لا يحدقون، لا يبتسمون، لا يسألون. يرمقون المارّين بنظرة عابرة كأنهم يعيدونهم إلى الصمت الذي خرجوا منه. الشقق مكدّسة على بعضها، جدرانها رطبة ونوافذها لا تفتح إلا بالقوة، والبرد ليس في الهواء بل في كل شيء.

كانت سفيتلانا تقيم في الطابق الثالث، شقتها ضيقة، سقفها

منخفض، أما نافذتها فكانت تطلّ على ساحة فارغة، يكسوها الجليد كأنها قبر جماعي طمره الزمن. في الليلة الأولى، لم تنم. في الليلة الثانية، سمعت صوت حذاء يجرّه شخص خلف الباب، كأن أحدهم يحاول ألّا يُسمع، لكنه لا يعرف كيف. في الليلة الثالثة، عُثر على أول جثة.

رجل في العقد السادس، عُلق من قدميه فوق باب الكنيسة الصغيرة، وقد نُقش على صدره بخيط رفيع من الدم: "أبكِ بصمت". الشرطة أتت متأخرة، ثم رحلت سريعًا، ولم يسأل أحد شيئًا، حتى المارّون لم يتوقفوا للنظر. وكأن الدم جزء طبيعي من تفاصيل القرية، وكأن القتل تقليد شتوي يمارس في صمت.

سفيتلانا لم تكن خائفة، لم تكن متفاجئة. فقط... بردها ازداد. كانت تحدّق من نافذتها في الساحة ذاتها، تتساءل: لماذا هو؟ ومن التالي؟ لماذا لم يكن أنا؟
في الليلة الرابعة، عادت من السوق محمّلة برغيفين وعلبة شاي، ثم توقفت فجأة، رأت شخصًا يرتدي معطفًا رماديًا يقف تحت عمود إضاءة لا يعمل، يحدق فيها دون ملامح. اختفى حين رمشت. قلبها خفق كأنه يركض، لكنها استمرت في السير، ببطء، كأنها لا تريد الوصول.

عند الباب، توقفت. مدت يدها نحو المقبض، ثم سمعت همسًا خلفها، قريبًا جدًا، لكنها حين التفتت لم يكن هناك أحد. فتحت الباب، دخلت، أغلقت، ثم وقفت في المنتصف، تنظر إلى لا شيء. قالت بصوت خافت: "لقد بدأ الأمر"، ثم جلست على الأرض، ظهرها للحائط، وعيناها لا ترمشان.
كان ذلك... قبل أن تُقتل الجثة الثانية.

الفصل الأول .

الجدار بارد، باردٌ كما لا تحتمله الرئتان.
والمسمار مغروسٌ بعناية في الخشب، ليس طويلًا جدًا، فقط بما يكفي ليُعلّق وزنًا بشريًا دون أن ينهار.
الرجل يتدلّى، جسده يهتزّ كلما دفعه الهواء البارد من النافذة المفتوحة، عينيه نصف مغمضتين، لا يرى، لكنه كان يرى، قبل دقائق فقط، حين كانت الشفرة تنزلق على صدره، تنحت الحروف بهدوء، كما لو أن جسده لوحة لا تتحرك، وكأن الدم مجرد حبر داكن على ورق هشّ.
"أبكِ بصمت"، كُتبت الكلمة باللاتينية، بحرف مرتب، متوازن، بين الضلعين الرابع والخامس، تمامًا فوق القلب.

كان الصمت يملأ الغرفة، صمت لا يشبه السكون الطبيعي، بل صمتًا كأنه صوتٌ خفي، يصرخ داخل العظام.
القتيل كان يحاول الحديث في البداية، بصوت مبحوح، لكنه توقف.
لا أحد يصرخ طويلاً حين يوقن أن موته ليس خطأ... بل طقس.

الثلج في الخارج يتساقط ببطء، ثقيلًا، كسولًا، وكأنه يراقب من

خلف النافذة.

المصباح في الزاوية يرتجف ضوءه، يتأرجح الظل فوق الجدران، كأنه يرقص رقصة خافتة مع جثةٍ ترفرف قليلاً كلما فتح الباب الخارجي.

القفاز الجلدي كان يُحكم قبضته على السكين، لكن اليد نفسها لم تكن مشدودة، بل هادئة، كما لو أنها تمارس فعلاً معتادًا، معتادًا لدرجة أن القاتل لم يُنهِ عمله بسرعة، بل جلس على حافة السرير، يراقب أنفاس الضحية وهي تتناقص، يرى وجهه يتحوّل من الرفض إلى الذهول، ثم إلى القبول... ثم الموت.

*في شقة سفيتلانا كانت النوافذ تهتز بنغمة الريح العاصفة كانت تبكي صمتها الداخلي بصوت خافت تنظر إلى النافذة حيث لا شيء سوى ذلك البياض الذي بدأ يتلطخ بلون غامض قلقة لكن تظهر عليها ملامح الحيوية رغم التعب تضع يدها على صدرها تشعر بنبضها السريع تتنهد بعمق وتخرج لتتجول بين أرجاء شقتها الصغيرة تحاول أن تملأ الفراغ بأفعال بسيطة تغسل كوباً، ترتب كتبا، تحرك الستائر ببطء لتتسلل أشعة الضوء الخافتة داخل الغرفة لكن في داخلها ثمة حرب لا تهدأ بين الخوف والفضول بين الرغبة في الهرب وبين الحاجة لمعرفة الحقيقة تنظر في المرآة تتحدث مع نفسها بصوت منخفض **"أشعر بالخطر ولا أعلم من ماذا بالضبط!!"** ، تتوقف*

عن الكلام وتغلق عينيها للحظة لكنها تفتحها سريعاً وكأنها تخشى أن يختفي شيء ما.
خرجت، صعدت الدرج، لم يكن لديها وجهة، فقط شعورٌ بأن شيئًا سيحدث.
الثلج كان يغطي عتبة الباب الأمامي للبناية المقابلة، خطت فوقه، ببطء، ثم تجمدت مكانها.

الجثة كانت هناك، تتدلّى من باب الكنيسة الصغيرة المهجورة، معلقة من القدمين، كما لو أنها طريدة معروضة في واجهة صيد.
لا أحد كان هناك، سوى عيون تتفرج من خلف النوافذ، دون تعليق.
الشرطة جاءت بعد ساعة.
رجل سمين، وقبعة محنية، ودفتر قديم.
سألها إن رأت شيئًا، قالت له بصوت بلا نبرة:
" رأيت ظلًا طويلاً... لا وجه له".
نظر إليها، دوّن شيئًا، ثم ابتعد.
لم يسألها لماذا كانت هناك، ولا لماذا لم تُظهر الخوف.
الليل ينساب ببطء في القرية البياض بدأ يتحول إلى كابوس حي تقف سفيتلانا في شرفة شقتها تراقب عمود الإضاءة الخافت تحت قدميها حيث يظهر ظل رجل يرتدي معطفاً رمادياً يقف

بلا حركة لا يتحرك كتمثال من حجر ينتظر أن تلتقطه العاصفة لكنها حين ترمش يغيب عن نظرها تختبئ في زوايا عقلها وهم يتسلل إليها أنها تلاحقها لا شيء يدعوها للراحة كل أصوات الخطوات التي تسمعها في زقاق القرية تصبح لها أغنية مرعبة كل ظل وكل عتمة تحمل تهديداً مرعباً لا تستطيع النوم لا تستطيع الهروب

فجأة تعود إلى النافذة لتجد أن ذلك الظل قد اختفى ثم تسمع همساً خافتاً يتردد في رأسها لا تعرف مصدره لكنه يقول بصوت خفيض "ستكونين القادمة" تتراجع إلى داخل الغرفة تشعر بالقشعريرة تسحب الغطاء على نفسها وتغلق عينيها تحاول أن تتشبث بالواقع لكنها تغوص أكثر فأكثر في بحر من الوساوس والخوف

الدماء التي تسربت في الكنيسة لم تكن مجرد دماء إنما كانت بداية لعالم جديد من الرعب والشك والتشظي النفسي كان البياض الملوث الذي سيغير حياة سفيتلانا إلى الأبد

مرّ اليوم التالي ثقيلًا.
الجيران تحدثوا بصوت منخفض، ثم توقفوا عن الحديث.
لم تُعلق الشرطة اللافتة الصفراء، لم يُغلقوا المكان.
الكنيسة بقت مفتوحة، كأن أحدًا ما قال: "لا نريد لهذا البياض أن يُلطّخ بالخوف."

لكن البياض كان ملوثًا...
ليس بالدم، بل بالهمس، بالخوف، بالشعور الثقيل بأن هذه الجريمة لن تكون الأخيرة.

سفيتلانا دخلت إلى شقتها، خلعت حذاءها، ثم مشت حافية نحو المطبخ.
الساعة تشير إلى الثالثة فجرًا، لكن الوقت في هذه القرية لا يُقاس بالساعات، بل بنبضات القلب.
كانت نبضاتها بطيئة، واثقة، كأنها لا تنتظر شيئًا.
وفي الخارج، تحت السماء الرمادية...
كان رجل آخر... يستعد ليكون التالي.

الفصل الثاني.

كان الثلج في تلك الليلة أثقل، أكثر سُمكًا، كأنه يحاول أن يُخفي شيئًا، أو يدفن أثر خطوات لم تُصنع بعد، أو أنه فقط سئم من الظهور النقي، وقرر أن يبتلع ما يمكنه من قسوة البشر، بين الشقق المتلاصقة والمصابيح التي تتأرجح بضوئها الأصفر، خرجت سفيتلانا من الباب الخلفي، لم تكن تقصد الذهاب إلى مكانٍ محدد، فقط خافت أن تبقى، خافت من سقفٍ ثابت، من مرآة تعكس عينيها، من ضوء يراها ولا يراها، مشَت بين الزقاق الضيق، وكانت تسمع خطى غير خطواتها، لكنها حين تلتفت، لا أحد، لا ظل، لا صوت سوى الريح، وصوت تنفّسها الذي أصبح فاضحًا في هذا الصمت الخانق، اقتربت من زقاق البقالة القديمة، وهناك توقف قلبها لحظة، ليست مجازًا، بل حرفيًا شعرت بأن قلبها ارتطم بجدار صدرها حين رأت ما لم يكن عقلها يريد رؤيته، الجثة الجديدة.

جسد امرأة، صغيرة القامة، مُمددة وسط الثلج كدمية مكسورة، يدها اليسرى موضوعة على صدرها، كأنها تمسك بقلبها قبل أن يسقط منها، بينما الأخرى مقطوعة، نعم، مقطوعة بعناية وكأن السكين لم يكن للقتل بل للرسم، الرأس مائل قليلاً والوجه مغطّى بشريط لاصق، وعلى جبهتها مكتوب بالدم: "تكلّمي

حين تُؤمرين"، لا صوت صدر من فم سفيتلانا، فقط شهيق طويل صامت كأنها سقطت إلى أعماق لا يُسمع فيها الصراخ، تأملت الجسد كما لو كانت تبحث عن رسالة تخصها، عن تلميح، عن علامة تُخبرها أنها قد تكون التالية، ثم، بلا تفكير، ركضت.

دخلت إلى قسم الشرطة وهي ترتعش، ليست من البرد بل من يقينٍ يتغذّى على الخوف، صرخت في وجه الضابط: "لقد رأيته! أقسم أنه كان هنا! نفس القامة، نفس المعطف الرمادي، نفس الخطوات!" رفع الضابط عينه من الورق ونظر إليها كما لو أنها زارتهم كثيرًا، وكما لو أنه بدأ يتعاطف معها بلا إيمان حقيقي بكلامها، أو ربما، كره في عينيه خذلته عن إظهار الحقيقة، قالت له بصوت يكاد لا يُسمع: "إنه يراقبني... إنه يعرف أنني أعلم"، لكنه لم يجب، فقط كتب شيئًا في دفتره وسألها: "متى كانت آخر مرة نمتِ فيها بشكل طبيعي؟"، لم تجب، التفتت إلى الباب وخرجت.

في الشقة كانت تدور، لا تستقر، تمشي ثم تتوقف، تحدّق في الحائط كأن فيه رسالة، ثم تضحك، ثم تبكي بلا صوت، وتعود لتحدّق في نفسها في المرآة: "لِم أنا؟ لماذا يحدث هذا وأنا هنا؟ من الذي يختار الضحايا؟ لماذا يتركني لأشاهده؟ لماذا لا يقتلني

أنا؟" كانت تهذي، نعم، لكنها كانت واضحة أكثر من أي وقت مضى، كانت تستنجد لا من القاتل، بل من عقلها، عقلها الذي يضجّ بالصور، صور الدم، الوجوه، الأصوات، والموت، وكل مرة تُغلق عينيها ترى الضحية الأخيرة، تراها تتحرك، تمد يدها، تصرخ بلا صوت، تسحبها نحو الثلج، نحو السكين.

كان القاتل في تلك الليلة أكثر هدوءًا، لم يترك صوتًا، لم يكسر بابًا، لم يُشعل نورًا، فقط دخل، كأن الجدران لم تعترضه، أو كأن البيوت نفسها تفتح له، أخرج السكين من جيب معطفه، نظيفة، حادة، انحنى على جسد المرأة التي كانت تقطع الخبز في مطبخها، لم تنتبه لصوته، لم تشعر به، أول ما شعرت به كان البرد في رقبتها، ثم حرارة الدم، ثم، لا شيء، كانت رقبته ثابتة حين قطع الوتر الصوتي، لم يُرد سماع صراخ، لم يُرد فوضى، ثم وضع يدها على صدرها كأنها اختارت موتها، ثم كتب رسالته الجديدة على جبهتها، بالدم، لا يخطئ مكانه، لا يرتجف، لا يتسرع، ثم اختفى.

في القرية، كل شيء صامت، البيوت تتحدث بصمت، النوافذ تراقب، الثلج يبتلع الجثث، يدفنها في البراءة، والشرطة تبدأ تتساءل إن كانت هذه الحوادث مترابطة، لكن سفيتلانا تعرف، تعرف جيدًا، حتى لو لم تفهم، تعرف أن ما يحدث ليس عادياً،

أن القاتل ليس عشوائيًا، أن الجرائم رسائل، وأن كل رسالة تقترب منها خطوة، خطوة واحدة فقط، كأنها شبح غير مرئي يتنفس معها، ينام تحت سريرها، ويضع يده على كتفها حين تستيقظ مذعورة، قالت في نفسها: "لو كنت القاتل، كنت سأقتلني منذ البداية"، ثم ضحكت، لكن ضحكتها كانت غريبة، لم تُشبهها، حتى هي لم تعرف صوتها تلك اللحظة.

وكانت تعرف، أو تظن أنها تعرف، أن القادمة... ستكون الأسوأ.

الفصل الثالث.

لم تكن الجريمة الثالثة أكثر دموية، لكنها مزّقت الداخل تمزيقًا... كانت وكأن القاتل قرر لأول مرة أن يوجّه سكينه نحو العقل لا الجسد، أن يقتل الوعي، أن يترك رائحة الخوف في الهواء بدل الدم، أن يبعثر هشيم الروح ولا يترك أثرًا مرئيًّا واضحًا. كان الصباح رماديًّا كأن الشمس تخلّت عن الأرض، الهواء صامتٌ حدّ البكاء، الأبواب موصدة والنوافذ متجمدة، والشارع الخلفي للمخبز القديم لم يكن مختلفًا، سوى أن جثةً ممددة كانت تنتظر بصبر، لا أحد يقترب، لا أحد يجرؤ.

الجسد بلا دماء، لا آثار عنف، لا خدش يُفسر، فقط جفنٌ مشقوق بخيط أسود وعين مفتوحة على اتساعها، جامدة كأنها تقول شيئًا لم يفهمه أحد. خيط أسود طويل، كأن القاتل قرر أن يزرع الغموض في موضع النظرة، ألا يكفي الموت، بل أراد لها أن تموت وهي تحدق في البياض.

حين وصلت سفيتلانا لم ترَ الجثة، بل شعرت بها. لم تر الدم، بل شعرت بالصوت. شيء في داخلها انفلت، نبضتْ نبضة لم تكن من قلبها، ارتجّ عصب ما في عمودها الفقري، وتوقّف الزمن. كانت الضحية فتاةً شابة، شعرها يشبه شعر سفيتلانا، قامتها كذلك، وكأن المرآة سقطت من يد أحدهم وانكسر

زجاجها على الجليد.

تقدمت دون إذن، كأن الهواء انشق لها ممرًّا، الشرطي الذي يصرخ في الخلف لم يصل، لا أحد أوقفها. فقط هي والجثة. تجمدتْ عند الرأس، عند تلك العين، الجفن المخيط، الخيط الأسود كأنّه يرسم علامة. وشيء ما قال لها في داخلها: "هذه أنتِ."

وفي لحظة فقدت كل الشعور بالزمن، لم تكن هنا، ولا هناك. كانت في ذهنها، في ركن داخليّ صغير ومظلم، ترى نفسها تقف أمام نفسها، وتسمع أفكارًا لا تُشبه صوتها.
كانت تنام كل ثلاثة أيام ساعة واحدة بالكاد، لم تعد تثق بالليل، لا تحب النوافذ، تبغض انعكاسات الزجاج. تسمع أصواتًا لا يسمعها غيرها، تنظر للناس وتراهم وكأنهم بعيدون آلاف الأميال، وكأن القرية كلها شاشة عرض، وهي فقط العالقة داخل المشهد.

كل شيء فيها مشكوك. هل هذه يدها؟ هل هذا صوتها؟ لماذا لا تشعر بخطواتها؟ لماذا تشك بكل شيء؟ لماذا تضحك وهي لا تضحك؟ من يحرّك عضلات وجهها غيرها؟ هل كانت تهلوس؟ لا تعرف.

عندما تجلس أمام المرآة وتحدق في وجهها، ترى عينين لا

تخصانها، كأن هناك شخصًا ينظر من داخل جلدها، شخص يراقب بصمت ويبتسم. في أحيان كثيرة، كانت تتحرك وتنسى لماذا، تخرج إلى الشارع دون سبب، تدخل دكانًا ثم تنسى لماذا جاءت. تأكل وهي لا تجوع.
تعاني مما لا تعرف له اسمًا. لا تملك تشخيصًا ولا تهمّها المسميات. تسميه "الشيء الذي يسكن رأسي." هذا الشيء الذي يجعلها تُغلق الباب بمفتاحين، وتضع الكرسي خلفه، وتتحقق من الخزانة وتحت السرير، ثم تجلس في الظلام وتنتظر. كل ليلة كانت معركة، كل ثانية تمرّ وكأنها لحظة قبل النهاية.

ذهبت إلى الشرطة مجددًا، هذه المرة الثالثة، وقالت وهي ترتجف: "رأيته. إنه هنا. نفس المعطف الرمادي. نفس النظرة. رأيته قرب الكنيسة، كان يراقبني. رأيته والله رأيته!" الشرطي الشاب نظر إليها طويلًا، ثم قال بهدوء خالٍ من الإيمان: "آنسة سفيتلانا، أظن أنك بحاجة إلى زيارة مختص، فقط للاطمئنان على صحتك النفسية، لستِ بخطر، فقط للاطمئنان..."

كأن الكلمات تلك كانت خنجرًا في صدرها، سُمًّا يسري في حلقها. كانت تعرف... هي لا توهم. هي لا تتخيل.
إنهم لا يرون. لا يسمعون. لا يعرفون كم يسكن الموت بين ضلوعها.

في المساء، بعد أن انطفأ كل شيء في القرية إلا العيون، جلست وحدها على الأرض، الأنوار مطفأة، فقط صوت أنفاسها يعلو، والثقل فوق صدرها، والخوف يُمزقها من الداخل.

ثم شعرت بها.

همسة.

ليست صوتًا.

فكرة.

قالت لها: "أنتِ التالية... أو... أنتِ البداية؟"

الفصل الرابع .

لم يكن في القرية ليلٌ حقيقي. بل مجرّد غلاف أبيض من صقيع لا يُلامس إلا الجلد، لا يدفن الأصوات بل يعكسها. كانت البيوت النائمة تبدو كمكعبات ثلج خالية من الروح، لا نوافذ فيها تبكي، ولا أبواب تُغلق فعلياً... حتى الهواء لا يتحرك إلا عندما يصرخ أحدهم.
لكن في تلك الليلة، لم يصرخ أحد. لم يسمع أحدٌ شيئاً. لم يشعر أحد حتى أن جريمة قد وقعت.

وجدوا الجثة في حظيرة مهجورة خارج حدود القرية. ضوء الصباح لم يكن قد تسلل بعد، فقط بقايا الليل البارد، وبعض آثار خطوات غامضة على الثلج، كانت تمشي ثم تتلاشى. لم يعرفوا لمن تعود، ولا في أي اتجاه ذهبت.

الضحية هذه المرة لم يكن شاباً، بل رجلاً عجوزاً، قاسي الملامح في صورته القديمة، معروف بأنه يبيع الفحم ويسكن وحيداً. لكنه لم يمت بسكين، ولا حبل.
القاتل، هذه المرة، كان أكثر هدوءاً، أكثر احترافاً، وأكثر وعيًا بالجسد.

حين دخلت الشرطة، وفتحت الباب المهترئ للحظيرة، وجدوه

ممدداً تحت سلّم خشبي مكسور، عيناه مغطاتان بعصابة سوداء، وفمه مفتوح... ممتلئ برماد. رماد حطب. رماد فحم. رماد بشري؟ لم يقرر الطبيب الشرعي بعد.

لكن الأغرب، أن الرماد لم يكن محشوراً كمن خُنق، بل وُضع بعناية، وبكمية تكفي أن تملأ روحاً، لا فماً. وعلى صدره، كُتبت كلمة واحدة بالفحم: "اختنق".

حين وصل الخبر إلى سفيتلانا، لم تكن في القرية. كانت تسير بلا هدف في الغابة القريبة، تتبع صوت أفكارها، كأن أحدهم يناديها من بين الأشجار، لكنها لم ترد. لم تكن تمشي لتتبع الصوت، بل لتتجاهله.
حين سمعت، توقفت. سقطت على ركبتيها. ثم ضحكت.

ضحكت.

ضحكة لا تشبه البشر. ضحكة واحدة، طويلة، ثم صمتت فجأة، كأنها اكتشفت للتو أن جسدها خانها.
وعادت إلى الشقة. لم تتحدث إلى أحد. لم تفتح الستائر. لم تشعل النور. جلست فقط، وأخذت تكتب على ورقة لا يقرأها أحد.

"الرماد لا يخرج من الفم إلا إذا احترق القلب أولاً."

كتبتها، ثم مزقتها، ثم أحرقتها، وراقبت كيف يتحول الورق إلى رماد هي الأخرى.

في الداخل، كانت تعيش حالة يُطلق عليها في علم النفس: التشوش الهووي والانفصال العاطفي. كانت ترى الجريمة، وتعرف تفاصيلها، لكن لا تشعر بشيء تجاهها. لا خوف. لا غضب. لا حزن. فقط... صدًى غريب لرغبة أن تكون هناك.

كأنها، بطريقة ما، كانت تتخيل نفسها مكان القاتل. لا لأنها تريده، بل لأنها الوحيدة التي ترى ما يراه.
وفي الليل، بدأ كل شيء ينهار. الأوهام صارت رؤى. الرؤى صارت مشاهد. المشاهد بدأت تتكرر، كأن أحدهم يعيد عرضها مراراً وتكراراً، لكنها في كل مرة تُفقد منها قطعة، ويُضاف إليها ظلّ.

ظلت سفيتلانا تمشي داخل رأسها بلا مخرج. الحوائط بيضاء. الأصوات مكبلة. والخوف صار عادة.

ثم بدأت تسمع اسمها في الليل. لا أحد يناديها، لكنها تسمع "سفيتلانا..." مرة، مرتين، عشر. من الجدار، من المرحاض، من خزانة الثياب.

وفي لحظة، وقفت أمام المرآة، وقالت بصوت مرتجف: "لم

أعد أنا. لا أعرف من تسكن داخلي. لكنني لم أعد أنا."

وفي الخارج، جليد جديد يغطي الطريق.
والقاتل، على ما يبدو، لم ينته بعد.

الفصل الخامس .

لم يكن البرد جديدًا على القرية، لكنه في تلك الليلة بدا وكأنّه عاد بذكريات قديمة... كأنّ صقيعًا آخر، أقدم من الثلج ذاته، كان يتمشى على الأسطح، يراقب النوافذ المغلقة، ويهمس في الأبواب الخشبية بشيءٍ لا يقال.

الخامسة. الخامسة كانت الجريمة التي غيّرت كل شيء. حين خرجت سفيتلانا صباحًا لتشتري شيئًا لا تحتاجه، مرّت من أمام مكتب البريد، فشعرت بجسدها يتوقف. لا لأمرٍ مرئيّ... بل لرائحة. تلك الرائحة التي لا يفهمها غير من لامس الدم. شيء بين حديد صدئ وثلج مشبع، بين فمٍ مكسور ورغبة في القيء. اقتربت بلا أن تشعر، هناك في الزقاق الضيق، الملتوي، لم يكن هناك سوى ظلٍّ واحد طويل.

الجثة هذه المرة... كانت مشنوقة.
لكن ليس من رقبتها.
بل من يد واحدة. يد يمنى مشدودة بحبل إلى عارضة قديمة صدئة، والجسد يتدلّى جانبًا كأنه مشنوق من طرفٍ واحد.
وكان الجسد قد قُشر من كتفه حتى المرفق... ببطء... كما يُقشر أحدهم قشرة تفاحة... ولم يترك القاتل شيئًا بلا دلالة.

اليد اليُسرى ممزقة الأوردة، كأنها كتبت شيئًا في الهواء ولم تُكمله. أما القدم اليمنى، فكانت ملفوفة بورق جرائد بلغة لا يُفهم منها شيء، بينما على الجدار، كُتب بالفحم مجددًا، لكن بخط مرتجف:
"لستُ أنا من بدأ."

حين رأت سفيتلانا المشهد، لم تصرخ. لم تركض. بل سقطت على ركبتيها مرة أخرى، كما في الجريمة الثالثة، لكن هذه المرة ببطء... بثقل مريب، كأنها تسلّمت شيئًا في داخلها، شيئًا تعرفه. كانت تتنفس بصعوبة، يداها ترتجفان، وعيناها تحدّقان لا في الجثة، بل في الجدار... في الكلمات... كأنّها كانت تعرف ما تعنيه.
في المساء، لم تتحدث. لم تذهب إلى الشرطة. لم تكتب شيئًا. بل جلست على الأرض، قرب المدفأة التي لا تعمل، تنظر إلى يدها اليُسرى، وتهمس لها: "هل كتبتِ ذلك قبلي؟"

ثم صمتت.
ثم ابتسمت.

لم تكن ابتسامة سعادة. كانت أشبه بتسليم. بتصالحٍ فوضوي مع شيء بداخلها ظلّ يدقّ على جدران عقلها بصبر، حتى انكسر الباب. وها هو يخرج، لا بعنف، بل بهدوءٍ من عاش طويلاً في

العتمة.

وفي الليل، حلمت. لكنها لم تكن أحلاماً عادية. رأت نفسها تمشي في ممر ضيّق، أضيق من أن يتسع لجسدها، لكنه يتسع لعقلها، للذكريات التي لا تعرف كيف وُلدت. ممر أبيض، جليديّ، بلا نهاية. وفي آخره، مرآة. وقفت أمامها.
لكن ما رأته لم يكن انعكاسها.

كانت سفيتلانا هناك. نعم. لكن الأخرى، النسخة الأخرى، الواقفة في المرآة، لم تكن ترتجف. لم تكن مكسورة. كانت واقفة بثبات، وتحدّق فيها بابتسامة خالية من المشاعر.

قالت لها بصوت خافت:
"كل شيء حدث لأنكِ لم تريده أن يحدث."
ثم اختفت.

استيقظت، جسدها مبلل بالعرق، النافذة مفتوحة، الثلج يتسلل من الشقوق، والبياض يملأ الغرفة. ولم تعد تعرف كم من الأيام مر، ومن الجثث ستأتي، ومن القاتل حقًا.

لكنها عرفت شيئًا واحدًا.
أنها لم تعد الضحية.
ولم تعد الشاهدة.

هي... شيءٌ آخر تمامًا.

الفصل السادس .

ما الذي يمكن أن يصنع قاتلاً؟
أيّ عمرٍ داخلي، أيّ لحظة انفجرت وبقيت شظاياها تدور في الروح حتى اختلطت بالدم؟
لا أحد يعرف، لا أحد يرى... سوى الجليد.

سفيتلانا أصبحت تخاف من المرآة.
صارت تغطيها كل ليلة، كما كانت أمها تفعل في بيتها القديم الذي احترق قبل أعوام. كانت تُؤمن أن الأرواح تسكن الزجاج، وأنك إذا حدّقت فيه طويلاً... قد ترى من لا يُفترض بك أن تراه.

لكن سفيتلانا لا تخاف من الأشباح.
إنها تخاف من نفسها حين تراها في انعكاس لا يشبهها.
صارت تضحك دون سبب. ثم تبكي بعد دقيقتين.
تتحدث مع أحد لا يرد.
وتنسى أحيانًا لماذا دخلت المطبخ، أو لماذا ارتدت معطفها في منتصف الليل.
تقول: "كنت ذاهبة إلى السوق"، ثم تكتشف أنها لم تفتح باب

المنزل منذ ثلاثة أيام.

بدأت تكتب مذكراتها، لكنها لا تتذكر أنها كتبتها.

في كل مرة تفتح الدفتر، تجد خطًا مختلفًا، كلمات لا تشبهها، أفكارًا غريبة...

"الجثة القادمة تستحق رقصة قبل الطعنة."

من كتب هذا؟

من الذي ترك الصفحة مفتوحة على منتصف الدفتر، ونسى أن يمزقها؟

هل كانت نائمة؟ هل هو حلم؟ هل... هو هي؟

بدأت تسمع أصواتًا.

صوت امرأة تغني في الليل.

صوت خطوات في الحمّام، رغم أن الماء لم ينزل.

وصوت أنفاس خلف الستائر، حتى في الصباح.

ذهبت إلى الشرطة مجددًا، هذه المرة ترتجف.

قالت للمفتش: "أنا أراه. خلفي. كل ليلة. يقف ويبتسم. لا يقتلني. لا يتحدث. لكنه يعرفني."

حدّق بها طويلًا، ثم سأل:

"هل أنت بخير؟"

قالت: "أنا لا أعرف."

في طريق عودتها، مرّت بجانب المرآة المكسورة عند الزقاق.
لم ترَ انعكاسها.
رأت امرأة أخرى ترتدي نفس معطفها، لكنها لم تكن تحدق بها... كانت تبتسم... ومضت.

ليلاً، وجدت في جيبها سكينًا صغيرة، مغطاة بورق قماش. لا تتذكر من أين أتت. ولا تتذكر أنها خرجت.
فتحت الدرج، ووجدت صورتها وهي صغيرة... بجانب أمها، لكن هناك يد أخرى تمسكها من الخلف... يد لا تتذكرها.

بدأت تلاحظ نمطًا غريبًا:
كل ضحية كانت تعرفها بطريقة ما.
الرجل الأول كان بائعًا يتجاهلها دائمًا.
الثانية كانت امرأة صرخت في وجهها منذ أشهر لأنها لم تُطفئ السيجارة عند الدرج.
الثالث كان يحدق فيها كثيرًا.
الرابع سرق منها ذات مرة ثم أنكر.
والخامس... لم تسامحه أبدًا.
هل يمكن أن تكون كل هذه صدفة؟
أم أن الظل الذي تلاحقه... يسكن جسدها؟
هل كانت تنام... وتصحو وهي شخص آخر؟

هل كانت تحلم... أم تنفذ؟

سفيتلانا لم تعد تتنفس بشكل طبيعي.
كل ليلة تشعر أن قلبها يتحول إلى حجر، وأن عقلها ينقسم لنصفين: أحدهما يصرخ، والآخر يضحك.
وصوتٌ بداخلهما معًا يقول:
"البياض لا يغسل الدم. فقط يموّه آثاره."

في اليوم التالي، أغلقت الستائر، وكتبت على الجدار:

"إنني أختبئ من نفسي. أختبئ مني... بي."

الفصل الأخير .

لم تكن الشمس قد طلعت منذ ثلاثة أيام.
القرية اختنقت ببياض كثيف، لا يرى منه شيء.
المداخن صامتة، النوافذ كأنها عيون عمياء، والطرقات صارت خيوطًا مشوشة في نسيج من الثلج الرمادي.

في مركز الشرطة، كان المفتش "أناتولي" قد أنهى فحص الجثة السادسة.
لكن هذه المرة... لم تكن الجثة في زقاق.
بل وُجدت في بيت سفيتلانا.

جسد صغير، فتاة في العاشرة، وُضعت بداخل خزانة قديمة في غرفة المعيشة.
ملفوفة بشالٍ حريريّ أزرق، عينان مفتوحتان، ودم مجفف على شفتها السفلى.
وفي يدها... دمية قُطعت إحدى عينيها، وخيط أسود عُقد حول عنقها.
كان المفتش قد بدأ يلاحظ منذ مدة أن هناك نمطًا غريبًا.
لا الجثث وحدها، بل سفيتلانا نفسها.

هي أول من وجَد الجثة الأولى.

هي من أبلغت عن الثانية قبل أن يراها أحد.
هي من "رأت القاتل" مرات عديدة... وصفته بتفاصيل تتغير كل مرة.
هي من كانت ترتجف دومًا، تبكي، تتنفس بطريقة غير منتظمة، ثم تهدأ فجأة.
هي... كانت الوحيدة التي تعرف جميع الضحايا، بطريقة أو بأخرى.

حين سألها أناتولي عن الفتاة، لم تجب.
نظرت إليه مطولًا، ثم تمتمت:
"كنت أراها دائمًا في الممر... كانت تضحك."
سألها: "من هذه الطفلة؟ ما اسمها؟"
قالت بهدوء: "لا أعرف."
ثم أضافت:
"ربما أنا."

حين فتشوا المنزل، وجدوا دفترًا صغيرًا تحت الأرضية الخشبية.
كان مكتوبًا بخطين مختلفين، كل منهما له نبرة خاصة.
خط هادئ، مرتب، مليء بالملاحظات اليومية.
وآخر فوضوي، مشوّش، كلمات غير مفهومة، ورموز، وجمل

متكررة:
"أراهم."
"أكرههم."
"إنهم يراقبونني."
"أنا أحميها مني."
ثم في صفحة ممزقة، وُجدت خريطة مرسومة بخط الأطفال،
لأحياء القرية...
ومواقع الجثث مرسومة بدقة.

في الصفحة الأخيرة، كُتب بخط واضح:
"سفيتلانا ليست أنا. أنا أراقب فقط. أنا أقتل كي تحيا."

عندما واجهها المفتش بتلك الأدلة، انفجرت بالبكاء.
لكنها لم تكن دموعًا حقيقية.
كانت خليطًا من ارتياح... وانكسار.

ثم ضحكت.

ضحكت طويلًا... بصوت ناعم، عالٍ، كأنه لا يخصها.
وقالت:
"هل ظننتني خائفة؟ لقد كنت ألعب... فقط ألعب."

في التحقيق، لم تعترف بشيء مباشر.

لكنها بدأت تروي قصصًا لا منطق فيها.
عن امرأة كانت تعيش في المرآة.
عن طفلة تسكن في سقف غرفتها.
عن يدٍ تسحبها من الداخل لتقتل، ثم تُعيدها للنوم.

بدأ الخبر ينتشر...
أن القاتل لم يكن رجلًا ضخمًا، ولا مريضًا خارجيًا...
بل فتاة ذات عينين واسعتين، وابتسامة خجولة، وجروح قديمة على يدها.
أنها كانت تسكن بين الناس، تتبسم في الأسواق، وتخبر الشرطة بما "ترى".

لكنها لم تكن ترى.
كانت تتذكر.

أُرسلت سفيتلانا إلى مصحة عقلية، خارج حدود روسيا.
وفي تقرير الطب النفسي الأخير، كُتب:

> "المريضة تُعاني من اضطراب الهوية التفارقي. تظهر عليها شخصيتان على الأقل: الأولى مسالمة، الثانية عدائية شديدة الذكاء. الشخصية الثانية هي المسؤولة عن عمليات القتل، مع ذاكرة مشوشة لدى الأولى. لا يمكن اعتبارها مدركة

تمامًا لأفعالها."

لكن، في الليلة التي سبقت نقلها، زارها المفتش أناتولي للمرة الأخيرة.
قال لها وهو يحدّق في عينيها:
"أخبريني... من أنتِ حقًا؟"
فابتسمت... وأجابت بصوت طفولي لا يشبهها:
"أنا البياض... حين يتلوث."

ثم أغلقت عينيها، ونامت.

وهكذا...
تُطوى قصة "بياضٌ ملوثٌ"، لا بنهاية مريحة، بل بسؤال معلّق في هواء ثلجيّ:

هل كان كل شيء لعبة عقلٍ محطم؟
أم أن هناك "أحدًا آخر"... ما زال يراقب من خلف الزجاج؟
النهاية.